التّجرُّدُ في مُعاملةِ الخَلْقِ

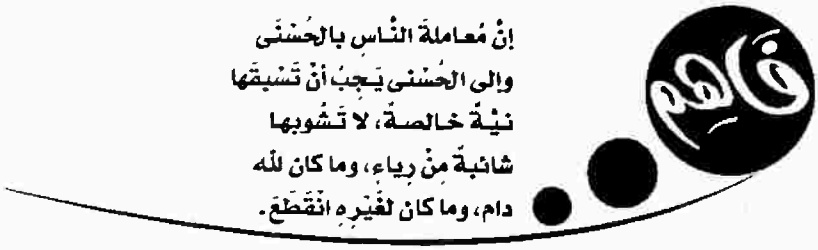

إنّ مُعاملةَ النّاسِ بالحُسْنى والى الحُسْنى يَجبُ أنْ تَسْبِقَها نيّةٌ خالصةٌ، لا تَشُوبها شائبةٌ مِنْ رياءٍ، وما كان للهِ دام، وما كان لغَيْرِهِ انْقَطَعَ.

إذا سلَّمت على أخيك، أَوْ تبسَّمتَ في وَجْهِهِ، أو أَلْقَيْتَ على مسامعِهِ كلمةً طيِّبةً ـ فقدِّمْ بَيْنَ يَدَيْ ذلك نيّةً خالصةً، وإنْ كُنْتَ إنّما تُريدُ بمُعامَلَتِكَ إقامةَ جاهِكَ، ولتُحْمَدَ عِنْدَ الخَلْقِ سِيرَتُكَ ـ فَلَكَ ما نَوَيْتَ، فَلَنْ تَحْصِدَ بذلك إلّا النَّدامةَ، حيثُ لا ينفعُكَ النَّدَمُ.

وأوَّلُ سُقُوطِكَ أنْ يَنْقَلِبَ عليك مَنْ كُنتَ تَوَدُّهُ، أَوَ لَمْ تَسْمَعْ إلى قَوْلِ مَوْلاكَ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧).

وَمِنْ دُرَرِ العلّامةِ ابنِ الجَوْزيِّ ـ رحمه الله ـ قولُهُ: «صارَتْ أَحْوالُ الخَلْقِ نَواميسَ لإقامةِ الجاهِ، لا جَرَمَ[1] ـ واللهِ ـ سَقَطْتُمْ مِنْ عَيْنِ الحقِّ، فأسقطكمْ مِنْ عَيْنِ الخَلْقِ. فكمْ مِمَّنْ يَتْعَبُ في تَرْبيةِ نامُوسٍ، ولا يُلْتَفَتُ إلَيْهِ، ولا يَحْظَى بمُرادِهِ، ويَفُوتُهُ المُرادُ الأكبرُ. فالْتَفِتُوا ـ إخواني ـ إلى إصلاحِ النِّيّاتِ، وتَرْكِ التَّزَيُّنِ للخَلْقِ، ولْتَكُنْ عُمْدَتُكُمُ الاستقامةَ مَعَ الحقِّ، فبذلك صَعِدَ السَّلَفُ وسَعِدُوا، وإيّاكُمْ وما النَّاسُ عليه اليَوْمَ؛ فإنَّهُ بالإضافةِ إلى يَقَظَةِ السَّلَفِ نَوْمٌ»[2].

---

(١) لا جَرَمَ أيْ: حَقًّا.

(٢) «صَيْدُ الخاطِرِ» (ص ١٩٧-١٩٨).

مَرْجَانٌ

«أَخْلِصْ في وُدِّكَ، تَخْلُصْ لَكَ المَوَدَّةُ».

بداية الانطلاق

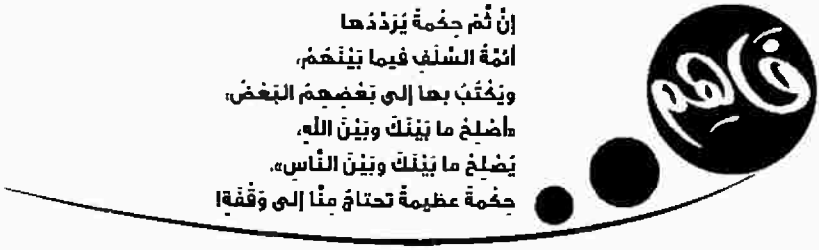

إنَّ ثَمَّ حِكْمَة يُرَدِّدُها
أئمةُ السَّلَفِ فيما بَيْنَهُم،
ويَكْتُبُ بها إلى بَعْضِهِمُ البَعْضِ:
«أَصْلِحْ ما بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ،
يُصْلِحْ ما بَيْنَكَ وبَيْنَ النَّاسِ».
حِكْمَةٌ عظيمةٌ تحتاجُ مِنَّا إلى وَقْفَةٍ!

تِلْكَ ـ واللهِ ـ حِكْمَةٌ تبطن حكم بالغة، فَقُلُوبُ العِبادِ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أصابعِ الرَّحمنِ، يُقَلِّبُها كيفَ يشاءُ، فَمَنْ أَصْلَحَ حالَهُ مَعَ اللهِ، أَحبَّهُ اللهُ، وإذا أحبَّهُ أَحْبَبَهُ إلى عِبادِهِ، وجَعَلَ لَهُ في قُلُوبِهِمْ مَقرًّا ولابُدَّ، يَشْهَدُ لذلك الكتابُ والسُّنَّةُ.

قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦). أَيْ: محبَّةً ووِدادًا في قُلوبِ عِبادِهِ وأَهْلِ سَمَواتِهِ وأَرْضِهِ؛ لأَنَّهُمْ وَدُّوهُ، فوَدَّدَهُمْ إلى أَوْليائِهِ وأَحِبَّائِهِ.

وفي «الصَّحيحَيْنِ»[١] مِنْ حديثِ أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قال رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْدًا، نادى جِبْرِيلَ: إنِّي أُحبُّ فُلانًا فأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادي في أَهْلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ»

ولله دَرُّ الفُضَيْلِ بنِ عِياضٍ -رحمه الله- حينَ قال:

«إنَّما يَهابُكَ الخَلْقُ على قَدْرِ هَيْبَتِكَ للهِ»[٢].

---

(١) رواه البُخاريُّ (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٢) «حِلْيَة الأَوْلياء» (٢/ ٣٦١).

وَمِن دُرَرِ العلَّامة ابنِ الجَوزيّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «إخْواني، اسْمَعُوا نصيحةَ مَنْ قَدْ جرَّبَ وخَبَرَ؛ إنَّهُ بقَدْرِ إجْلالِكُمْ للهِ - عَزَّ وجلَّ - يُجِلُكُمْ، وبمِقْدارِ تعظيم قَدْرِهِ واحترامِهِ يُعَظِّمُ أقْدارَكُمْ وحُرْمَتَكُمْ، ولَقَدْ رَأَيْتُ - واللهِ - مَنْ أنْفَقَ عُمُرَه في العِلْمِ إلى أنْ كَبِرَتْ سِنُّهُ، ثُمَّ تعدَّى بَعْضَ الحُدُودِ؛ فهان عِنْدَ الخَلْقِ، وكانوا لا يَلْتفتون إلَيهِ مَعَ غَزارةِ عِلْمِهِ، وقُوَّةِ مُجاهَدَتِه.

ولَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ كان يُراقِبُ اللهَ - عزَّ وجلَّ - في صَبْوَتِهِ مَعَ قُصُورِهِ بالإضافةِ إلى ذلك العالِمِ؛ فَعَظَّمَ اللهُ قَدْرَهُ في القُلُوبِ، حتَّى عُلِّقَتْهُ(١) النُّفُوسُ، ووصفتْهُ بما يَزِيدُ على ما فيهِ مِنَ الخَيْرِ»(٢).

لآلئُ:

قال سُفيانُ بنُ عُيَينَةَ - رَحِمَهُ اللهُ -:

«كان العُلَماءُ فيما مَضَى يَكْتُبُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ بهؤلاءِ الكَلِماتِ: مَنْ أَصْلَحَ سَريرَتَهُ، أَصْلَحَ اللهُ لَهُ عَلانِيَتَهُ، ومَنْ أَصْلَحَ ما بَيْنَه وبَيْنَ اللهِ، أَصْلَحَ اللهُ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ النَّاسِ، ومَنْ عَمِلَ لآخِرَتِهِ، كفاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْياهُ».

(رَوَاهُ ابنُ أبي الدُّنيا في كتاب «الإخلاص»). انظر: فتاوى ابن تيميَّه - رحمه الله - (٧/ ١٠).

---

(١) عُلِّقَتْهُ النُّفوسُ - بالضَّمِّ والتَّشديد - أَحَبَّتْهُ.

(٢) «صيد الخاطر» (ص١٥٥-١٥٦).

رَسُولُ المحبَّةِ

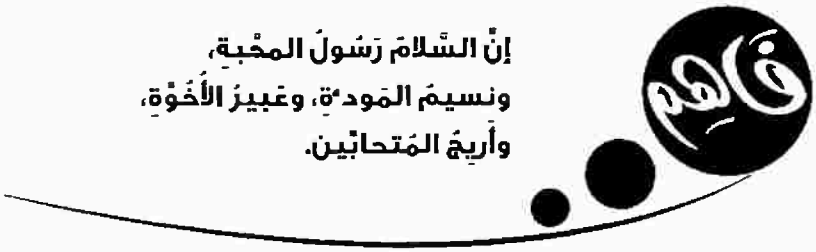

إنَّ السَّلامَ رَسُولُ المحَبةِ،
ونسيمَ المَودةِ، وعَبيرُ الأُخُوَةِ،
وأرِيجَ المَتحابِّين.

السَّلامُ طَرِيقُكَ إلى قُلُوبِ إخوانِكَ المُسْلمين؛ فاحْرِصْ على إفشائِهِ تَنَلْ صَفْوَ المحبَّةِ والمودَّة.

قال رسولُ الله – ﷺ –: «أَوَلا أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إذا فَعَلْتُموهُ تحابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ»[1].

ولا يَضُرُّكَ إنْ كان المُسَلَّمُ عليهِ لا يُبالي بسلامِكَ، ولا يَرُدُّ عَلَيك، أَلَا يُرْضيك أَنْ تَرُدَّ عليك ملائكةُ الرَّحمنِ، إذا لم يَرُدَّ عليك أخوك المُسْلِمُ؟!.

قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: «السَّلامُ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ، وضعه اللهُ في الأرضِ؛ فأفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، فإنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إذا مرَّ بقَوْمٍ، فسلَّم عليهِمْ، كأن لَهُ فَضْلُ دَرَجةٍ بتذكِيرِهِ إيَّاهُمُ السَّلامَ، فإنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ، رَدَّ عليه مَنْ هُوَ خيرٌ مِنْهُمْ وأَطْيَبُ»[2].

أَفْشِ السَّلامَ على الجميع ... على عَدُوِّكَ والصَّديقِ
لِيَفُوحَ أنسامُ السَّلامِ ... إلى القُلُوبِ مِنَ الطَّريقِ[3]

وكما يكونُ السَّلامُ عِنْدَ اللِّقاءِ، يكونُ عِنْدَ الفِراقِ.

(١) رواه مسلم (٥٤) عَنْ أبي هُرَيرةَ – رضي الله عنه –.

(٢) (صحيح) أخرجه البزَّارُ (١٩٩٩)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٠٣٩٢) عَنْ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رضي الله عنه –، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٦٩٧)، و«الصَّحيحة» (١٨٩٤).

(٣) ديوان «بلسم الحياة» لأستاذنا عبد الكريم العماد – حفظه الله – مخطوط.

فَعَنْ أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رَسُولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «إذا انتهى أَحَدُكُمْ إلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فإذا أراد أنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ؛ فَلَيْسَتِ الأُولى بأحقَّ مِنَ الآخِرَةِ»[١].

ويَكُونَ ـ أَيْضًا ـ بظَهْرِ الغَيْبِ: كأَنْ تُرْسِلَ لأخيك برَسُولٍ يَعْرِفُهُ؛ ليحملَ إليه سلامَكَ، أو تبعثَ له بالسَّلامِ عَبْرَ رسالةٍ، أو تَتَّصلَ به هاتفيًّا للسَّلام عليه، ويْتخلَّلْ ذلك السُّؤالُ عَنْ حالِه، وحالِ مَنْ يعزُّ عليه، مع التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبْرِ؛ فإنَّ ذلك أَدْعَى لبقاءِ المودَّةِ، وتوثيقِ عُرَا الأُخُوَّةِ بَيْنَكُما[٢].

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «يا عائشُ، هذا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلامَ». قالتْ: قُلْتُ: وعليه السَّلامُ ورحمةُ الله»[٣].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - أنَّهُ قال: «إنِّي لأَرْجُو ـ إنْ طال بي عُمُرٌ ـ أَنْ أَلْقَى عِيسى بْنَ مَرْيَمَ ؛، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلامَ»[٤].

سَلامٌ عَلَيْكُمْ والدِّيارُ بَعيدةٌ ... وإنِّي عَنِ المَسْعَى إِلَيْكُمْ لَعاجِزُ
وهذا كتابي نائبًا عَنْ زيارتي ... وفي عدمِ الماءِ التَّيمُّمُ جائِزُ

فإنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَسْبِقَكَ أَحَدٌ إلى السَّلامِ فافْعَلْ؛ فإنَّ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «وَخَيْرُهُما الَّذي يَبْدَأُ بالسَّلامِ»[٥].

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم -: «إنَّ أَوْلى النَّاسِ باللهِ[٦]

---

(١) (صحيح) رواه أبو داوُدَ (٥٢٠٨)، والتِّرمذيُّ (٢٧٠٦) وحسَّنهُ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٠٠)، وفي «الصَّحيحة» (١٨٣).

(٢) انظر «طريقنا للقلوب» للمؤلِّف (ص٩).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٢٤٩)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٤) رواه أحمدُ في «المسند» (٢/ ٢٩٨) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠) عن أبي أَيُّوبَ الأنصاريِّ - رضي الله عنه -.

(٦) إنَّ أولى النَّاسِ باللهِ أَيْ: أحقَّ بالقُرْبِ مِنْهُ بالطَّاعةِ وذِكْرِه ـ جَلَّ وعلا ـ.

مَنْ بَدَأَهُمْ بالسَّلام»[1].

وختامًا: أقولُ لِمَنْ يقرأُ كتابي هذا كما قال ابْنُ الوَرْديِّ - رحمه الله -:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ما أَحَبَّ وِصَالَكُمْ! وغايةُ مَجْهُودِ المُقِلِّ سَلَامُ

وقال آخَرُ:

سَلامٌ إذا لَمْ تَكُنْ لُقْيَةٌ وإنَّ يَدًا[2] أَنْ تَرُدُّوا السَّلَامَا

أَدَبٌ ربَّانيٌّ:

قَالَ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ (النساء: ٨٦).

(١) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ - واللَّفظُ لَهُ - (٥١٩٧)، والتِّرْمذيُّ (٢٦٩٤) وحسَّنه، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٠١١).

(٢) لا يَقْصِدُ باليَدِ هُنا اليَدَ الحقيقيَّةَ، وإنَّما يَقْصِدُ بها النِّعمةَ والعَطَاءَ، وقَدْ وَضَعَ اليَدَ مَوْضِعَ النِّعمةِ على الاستعارةِ؛ لأَنَّ النِّعمةَ تكونُ بها.

نَسيمُ المحبَّةِ

إنَّ المُصافحةَ نَفْحَةُ المَوَدَّةِ،
وبِسَاطُ الأُلْفَةِ، ونَسيمُ المحبَّةِ،
وبَلْسَمٌ لِكُلُومِ [1] المُتحابِّينَ.

السَّلامُ سَبَبٌ للمحبَّةِ، بَلْ خاطِبُها، والمُصافحةُ واسِطَةُ عِقْدِها[2]، ومَنْ جَمَعَ بَيْنَهُما، فَقَد اسْتَوَتِ المحبَّةُ على سُوقِها، مَعَ ما فيهما مِنَ الأَجْرِ العَظيمِ، والمَغْفِرَةِ الحقَّة، وتَساقُطِ الذُّنُوبِ تَساقُطَ وَرَقِ الشَّجَرِ.

قال رسولُ الله – ﷺ –: «ما مِنْ مُسْلِمَينِ يَلْتَقِيَانِ فيتصافَحَانِ، إلَّا غُفِرَ لَـهُما قَبْلَ أَنْ يَتفرَّقا»[3].

وقال – ﷺ –: «إنَّ المُؤْمِنَ إذا لَقِيَ المُؤْمِنَ، فسلَّم عَلَيْهِ، وأَخَذَ بيَدِهِ فَصَافَحَهُ؛ تَنَاثَرَتْ خَطَايَاهُمَا، كما يَتَنَاثَرُ وَرَقُ الشَّجَرِ»[4].

وقال – ﷺ –: «إنَّ المُسْلِمَ إذا صَافَحَ أَخَاهُ، تَـحَاتَّتْ خَطَايَاهُما، كمـا يَتَحاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»[5].

---

(١) **كلوم**: جَمْعُ: كَلْم ـ بالفَتْح ـ، وهو الجَرْحُ، ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على كِلامٍ.

(٢) **واسطة العقْد**: الجَوْهَرَةُ الفاخرةُ الَّتي تُجْعَلُ وَسَطَهُ.

(٣) (حسن) أَخرجه أبو داوُدَ (٥٢١٢)، والتِّرمذيُّ (٢٧٢٧)، وقال: حَسَنٌ غَرِيبٌ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٧٧٧)، وفي «الصَّحيحة» (٥٢٥) عَنِ البَرَاءِ بْنِ عازب – رضي الله عنه –.

(٤) (صحيح لغيره) أورده المُنْذريُّ في «التَّرغيب» (٣/ ٤٣٣) عَنْ حُذَيْفَةَ – رضي الله عنه –، وقال: رواهُ الطَّبرانيُّ في «الأَوْسَط»، ورُوَاتُهُ لا أعلمُ فيهم مَجروحًا. وقال الهَيْثَميُّ (٨/ ٣٦): رواه الطَّبرانيُّ في «الأَوْسَطِ»، ويَعْقُوبُ بْنُ محمَّدِ بْنِ الطحلاءِ رَوَى عَنْهُ غَيْرُ وَاحد، ولم يُضعِّفْهُ أَحَدٌ، وبقيَّةُ رِجالِهِ ثِقَاتٌ. وقال الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب» (٢٧٢٠): «صحيحٌ لغَيْرِه».

(٥) (صحيحٌ لغَيْرِهِ) أورده المُنْذِريُّ في «التَّرغيب» (٣/ ٢٧٠) عن أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه –، وقال الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب»: «صحيحٌ لغَيرِهِ».

صافِحْ أخاكَ؛ فربَّما مَسَحَتْ يَمينُكَ ما يَعيبُكْ
واجْنِ السَّلامةَ بالسَّلا مِ؛ فَلَسْتَ تَعْرِفُ مَنْ طَبِيبُكْ(١)

مِنْ أَدَبِ المُصَافَحةِ أَلَّا تَنْزِعَ يَدَكَ مِنْ يَدِ أَخيك، حتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذي يَنْزِعُ قَبْلَكَ. فَعَنْ أَنَس - رضي الله عنه - قال: «كان النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - إذا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ، لا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِه، حتى يكون الرَّجُلُ الَّذي يَنْزِعُ، ولا يَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنْ وَجْهِهِ، حتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ يصرِفُهُ، ولم يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جليسٍ لَهُ»(٢).

ماسٌ:

قال الحَسَنُ البَصْريُ - رحمه الله -: «المُصافَحَةُ تَزيدُ في الوُدِّ».

«المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق» (ص١٨٩).

(١) ديوان «بلسم الحياة» مخطوط.

(٢) (حسن) أخرجه أبو داوُدَ (٤٧٩٤)، والتِّرمذيُّ - واللَّفظُ لَهُ - (٢٤٩٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٣/ ٩١٠)، وهُوَ في «الصَّحيحة» (٢٤٨٥)، وقال مُحَقِّقُ «جامع الأصول» (١١/ ٢٥٠): «وهو حديثٌ حَسَنٌ».

إشراقة المحبة

إنَّ التَّبَسُّمَ إشراقٌ يستميلُ القُلوبَ، ويَسْتولى على الأفْئدةِ، ويَسْتَوطِنُ الشِّغافَ (١)، ويَبْعَثُ على السُّرورِ والانْشِراحِ.

مِنْ هَدْي نَبيِّنا – ﷺ – أَنَّهُ كان مِنْ أَكْثَرِ النَّاس تَبَسُّمًا.

فَعَنْ عَبدِ الله بنِ الحارث بنِ جَزْءٍ – رضي الله عنه – قال: «ما رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبُّسمًا مِنْ رسُولِ الله – ﷺ –»(٢).

وكانتِ البَسْمةُ مِنْ ضِمْنِ وَصَايَاهُ للنَّاس، حتَّى رَفَعَها إلى مُسْتَوَى الصَّدقة.

فَعَنْ أبي ذَرٍّ – رضي الله عنه – قال: قال رَسُول الله – ﷺ –: «**تبسُّمُكَ في وَجْهِ أَخيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»(٣).

وَجَعَلَ – ﷺ – لِقَاءَ النَّاسِ بوَجْهٍ طَلِيقٍ - أَيْ: باسم - مِنْ قَبيلِ المَعْرُوف.

فعن أبي ذَرٍّ – رضي الله عنه – قال: قال لي رَسُولُ الله – ﷺ –: «**لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا، ولَوْ أنْ تَلْقى أَخَاكَ بِوَجهٍ طَلْقٍ**»(٤).

قال الشَّاعِرُ:

ازْرَعِ البَسْمَةَ في الكَوْنِ، ولا تَقْتُلِ الحُسْنَ بخَلْقِ الحَزَنِ

---

(١) الشغاف - بزِنَة السَّحاب - : غلافُ القَلْب.

(٢) (صحيح) رواه التِّرمذيُّ (٣٦٤١)، وصحَّحه الألْبانيُّ في «صحيح التِّرمذيِّ» (٢٨٨٠).

(٣) (صحيح) رواه التِّرمذيُّ (١٩٥٦)، وصحَّحه الألْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٩٠٨)، و«الصَّحيحة» (٥٧٢).

(٤) رواه مسلم (٢٦٢٦).

كُنْ سَفِيرَ السَّعْدِ في كَوْكَبِنا بِابْتِسَامٍ مِثْلَ طَهَ فَكُنِ
كانتِ البَسْمَةُ لا تَهْجُرُهُ ابْتِسَامُ المَرْءِ بَعْضُ السُّنَنِ
رُتِّبَ الأَجْرُ على البَسْمَةِ، والْ عَبْسُ - بِئْسَ الفِعْلُ! - بَخْسُ الثَّمنِ(١)

وقال أستاذنا أبو مُحمد عَبْدُ الكريم العمّاد -حفظه الله- :

تبسَّمْ وإنْ كُنتَ في عُسْرَةٍ فإنَّ التَّبسُّمَ يَمْحُو الكَدَرْ
يَرَاكَ أَخُوكَ فَينْسَى أَسَاهُ وتُخْرُجُ مِنْ قَيدِ أَسْرِ الضَّجرْ
فَتَحيَا سَعِيدًا، وتُشْفِي سَقِيما وتَدْخُلُ بالأَجْرِ فِيمَنْ أُجِرْ(٢).

مِنْ أَخْلاقِ النُّبُوَّة :

قال جابرُ بنُ عَبدِ الله - رضي الله عنهما -: «ما رآني رَسُولُ الله - ﷺ - إلَّا وتَبَسَّمَ في وَجْهي». (رواه البُخارُي (٦٠٨٩)، ومسلم (٢٤٧٥)).

---

(١) بخس الثمن: ناقصُهُ.

(٢) «بلسم الحياة» مخطوط.

أنوارُ المحبَّةِ

إنْ هُنَاكَ أُمورًا تَزرَعُ
الأُلفَةَ والمودَّةَ في القُلوبِ،
مِنْهَا: الإعلامُ بالمحبَّةِ القَلْبيَّةِ،
إنْ كانَ ثَمَّ [1] حُبٌّ.

فَقَدْ تَظاهَرَتِ الأَحاديثُ النَّبويَّةُ، والتَّوْجيهاتُ المُصْطَفَويَّةُ في التَّأْكيدِ على هذا الحقِّ ورعايتِهِ، لِما لَهُ مِنَ الأَثَرِ العظيمِ في إشاعةِ رُوحِ المحبَّةِ والمودَّةِ والأُلْفَةِ، فَمِنْها:

قال رسولُ اللهِ -ﷺ-: **«إذا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ في اللهِ فَلْيُعْلِمْهُ؛ فإِنَّهُ أَبْقَى في الأُلْفَةِ، وأَثْبَتُ في المودَّةِ»** [2].

يقولُ البغويُّ -رحمه الله-: «ومَعْنَى الإعلامِ: هُوَ الحَثُّ على التَّوَدُّدِ والتآلُفِ، وذلك أَنَّهُ إذا أَخْبَرَهُ، استمالَ بذلك قَلْبَهُ، واجْتَلَبَ وُدَّهُ» [3].

وقال رسولُ اللهِ -ﷺ-: **«إذا أحبَّ أَحَدُكُمْ صاحِبَهُ، فَلْيَأْتِهِ في مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ بأَنَّهُ يُحِبُّهُ للهِ -عزَّ وجلَّ-»** [4].

يقولُ البغويُّ -رحمه الله-: «وَفِيهِ: أَنَّهُ إذا عَلِمَ أَنَّهُ مُحِبٌّ لَهُ، قَبِلَ نُصْحَهُ فيما دلَّهُ عَلَيْهِ مِنْ رُشْدِهِ، ولم يَرُدَّ قَوْلَهُ فيما دَعَاهُ إليهِ مِنْ صَلَاحٍ خَفِيَ عليه باطِنُهُ» [5].

---

(١) ثَمَّ -بالفَتْحِ-: اسمٌ يُشَارُ بِهِ بمعنى هُنَاكَ.

(٢) (حسن) أَخرجه وكيعٌ في «الزُّهْد» (٣٣٧) عَنْ عليِّ بْنِ الحُسَيْنِ بْنِ عليِّ بْنِ أبي طالب -رضي الله عنهما-، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (١١٩٩)، وفي «صحيح الجامع» (٢٨٠).

(٣) «شرح السنة» (١٣/ ٦٧).

(٤) (صحيح) أخرجه ابْنُ المُبارَكِ (٧١٢) عن أبي ذَرٍّ -رضي الله عنه-، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٧٩٧)، و«صحيح الجامع» (٢٨١).

(٥) «شرح السنة» (١٣/ ٦٧).

ومرّ رجلٌ بالنبيّ - ﷺ -، فقال رَجُلٌ مِمَّنْ عِنْدَهُ: «إنّي لأُحبُّ فُلانًا هذا لله».

فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «أَعْلَمْتَهُ؟». قال: لا. قال: «قُمْ إِلَيْهِ فَأَعْلِمْهُ». فقام إليه فَأَعْلَمَهُ، فقال: أَحبَّكَ الَّذي أَحْبَبْتَني لَهُ. ثُمَّ رجَعَ، فَسَأَلَهُ النَّبيُّ - ﷺ -، فَأَخْبَرَهُ بما قال، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، ولَكَ ما احْتَسَبْتَ»[١].

ولَقَدْ صَرَّحَ النَّبيُّ - ﷺ - بمحبَّتِه لأُنَاسٍ بأَعْيَانِهِمْ، فمنها: قَوْلُهُ - ﷺ - لِمُعَاذٍ - رضي الله عنه -: «يا مُعَاذُ، إنِّي - والله - لأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ - يا مُعَاذُ - لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ»[٢].

وبوّب البُخاريُّ - رحمه الله - في «صحيحه» بابًا قال فيه: بابُ قَوْلِ النَّبيِّ - ﷺ - للأَنْصَارِ: «أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ». ثُمَّ ساقَ الحديثَيْن بسندِهما:

عَنْ أَنسٍ - رضي الله عنه - قال: رَأَى النَّبيُّ - ﷺ - النِّساءَ والصِّبْيَانَ مُقْبِلِينَ - قال: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ عُرُسٍ - فقام النَّبيُّ - ﷺ - مُمْثِلًا[٣]، فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إليَّ» قالها ثَلاثَ مَرَّاتٍ[٤].

وعنه - رضي الله عنه - قال: جاءت امْرَأَةٌ، مِنَ الأَنْصَارِ إلى رَسُولِ الله - ﷺ - ومَعَهَا صَبيٌّ لها، فكلَّمها رَسُولُ الله - ﷺ -، فقال: «والَّذي نَفْسي بيدِهِ، إنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إليَّ». مرَّتَيْنِ[٥].

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٣/ ١٥٠)، وأبو داوُدَ (٥١٢٥)، والحاكمُ (٤/ ١٧١) عَنْ أَنسٍ، وقال: صحيحُ الإسناد، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «الصَّحيحة» (٤١٨).

(٢) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٥/ ٢٤٤)، وأبو داوُدَ (١٥٢٢)، والنَّسائيُّ (١٣٠١)، والحاكمُ (١/ ٢٧٣) وصحَّحه، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه ابْنُ خُزَيْمَةَ (٧٥١)، والأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

(٣) مُمْثِلًا أيْ: قائمًا مُنتصبًا.

(٤) رواه البخاريُّ (٣٧٨٥)، ومسلم (٢٥٠٨)، واللفظ له.

(٥) رواه البخاريُّ (٣٧٨٦)، ومسلم (٢٥٠٩).

وهأنا قَدْ سَرَدتُ بَعْضَ الأحاديثِ، وهي قَليلٌ مِنْ كَثيرٍ؛ ليَعْلَمَ الجميعُ أنَّ إشاعةَ رُوحِ المحبَّةِ، والتَّأكيدَ عليها بَيْنَ النَّاسِ خُلُقٌ عظيمٌ مِنْ أَخْلاقِ الإسلامِ، بَيَّنَ النَّبيُّ - ﷺ - ثَمْرَتَها بقَوْلِه: «......... أَبْقَى في الأُلْفَةِ، وأَثْبَتُ في المَوَدَّةِ»[١].

وَمَنْ رامَ[٢] مَعْرِفَةَ صَفَاءِ المحَبةِ، فَلْيَسْأَلْ قَلْبَهُ، أَلَيْسَتِ القُلُوبُ شَواهِدَ؟.

قال مُجاهِدٌ: «رَأَى ابْنُ عبَّاسٍ - رضي الله عنهما - رَجُلًا، فقال: إنَّ هذا لَيُحِبُّني. قالوا: وما عِلْمُكَ؟!. قال: إنِّي لأُحِبُّهُ، والأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ[٣]، فما تَعَارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، وما تناكر منها اخْتَلَفَ»[٤].

ولله دَرُّ القائِلِ:

لا تَسْأَلَنَّ المَرْءَ عَمَّا عِنْدَهُ ... واسْتَمْلِ[٥] ما في قَلْبِهِ مِنْ قَلْبِكا
إنْ كان بُغْضًا كان عِنْدَكَ مِثْلُهُ ... أَوْ كانَ حُبًّا فاز مِنْكَ بِحُبِّكا[٦]

مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوَّةِ:

قال رسولُ الله - ﷺ -: «إذا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخاهُ، فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ».

(أخرجه أحمدُ (٤/ ١٣٠)، وأبو داوُدَ (٥١٢٤) بلَفظ: «فَلْيُخْبِرْهُ» عَنِ المِقْدامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ - رضي الله عنه -، وصحَّحه الأَلْبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٧٩)).

(١) حسن: تقدَّم تَخْريجُهُ.
(٢) رام - مِنْ باب قال - : طَلَبَ.
(٣) المُجَنَّدَة: المجموعة.
(٤) «روضة العقلاء» (ص١٨٠).
(٥) يُقال: استملاهُ الكتابَ: إذا سَأَلَهُ أنْ يُمْلِيَهُ عليه.
(٦) «ديوانُ محَّمدٍ الورَّاقِ» (١٥٦).

استهلال

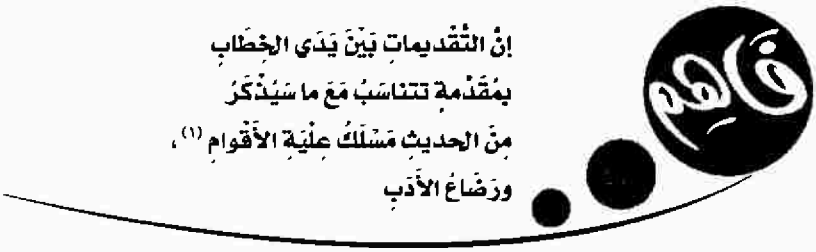

إنّ التقديمات بَيْنَ يَدَي الخِطَاب
بمُقَدِّمةٍ تتناسَبُ مَعَ ما سيُذْكَرُ
منَ الحديثِ مَسْلَكُ عِلْيَةِ الأقوام [١]،
ورَضَاعُ الأَدَبِ

وَهَا هُوَ النَّبيُّ - ﷺ - يُقَدِّمُ بمُقَدِّمةٍ رائعةٍ بَيْنَ يَدَيْ دَعْوَةِ قَوْمِهِ، فيقولُ: «**أَرَأَيْتَكُمْ [١] لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ [٢] هذا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**».

قالوا: ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِبًا. قال: «**فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شديدٍ**» [٤].

وأمُّ سُلَيم - رضي الله عنها - تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْ كَلَامِها بمُقَدِّمةٍ رائعةٍ، سَجَّلها التَّاريخُ بأحْرُفٍ مِنْ نورٍ، فها هي تقولُ لرَسُولِ الله - ﷺ -: «يا رسولَ الله، إنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ سُؤَالَها، فقالتْ: هَلْ على المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إذا هي احْتَلَمَتْ؟. قال: «**نَعَمْ، إذا رَأَتِ المَاءَ**» [٥].

وتُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَي اعتذارِها لِمَنْ خَطَبَها. بمُقَدِّمةٍ تَدُلُّ على رَجَاحةِ عَقْلِها، وعظيمِ أَدَبِها، خلَّدها التَّاريخُ، يَرْويها لنا وَلَدُها أَنَسُ بْنُ مالكٍ - رضي الله عنه - قال:

«خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْم، فقالتْ: واللهِ، ما مِثْلُكَ - يا أبا طَلْحَةَ - يُرَدُّ، ولكنَّكَ رَجُلٌ كافِرٌ وأنَا امْرأةٌ مُسْلِمةٌ، ولا يَحِلُّ لي أَنْ أتَزَوَّجَكَ، فإنْ تُسْلِمْ فَذَاكَ مَهْرِي، ما

---

(١) أَرَأَيْتَكُمْ أَيْ: أَخْبِروني.
(٢) سَفْحُ الجَبَلِ - بالفتح -: أَسْفَلُهُ، وقيل: عُرْضُهُ حَيْثُ يَسْفَحُ فيه الماءُ، والجَمْعُ سُفُوحٌ.
(٣) عِلْيةُ الأقوامِ - بالكَسْرِ -: جِلَّتُهُمْ وعُظماؤُهُمْ.
(٤) رواه البخاريُّ (٤٩٧٢)، ومسلم - واللَّفْظُ لَهُ - (٢٠٨) من حديث ابن عباس.
(٥) رواه البخاريُّ - واللَّفظُ لَهُ - (٢٨٢)، ومسلم (٣١٣).

أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَأَسْلَمَ فكان ذلك مَهْرَها»[١].

وَهِرَقْلُ يُقَدِّمُ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ رَغْبَتِهِ في إِسْلَامِ قَوْمِهِ مِنَ الرُّومِ، فيقولُ لَهُمْ: «يا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ في الفَلَاحِ والرُّشْدِ، وأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبايعوا هذا النَّبيَّ؟»[٢].

فَهُوَ لَمْ يَقُلْ لقَوْمِهِ: اتَّبِعُوا هذا النَّبيَّ، وهُوَ مَلِكٌ مُطَاعٌ يَأْمُرُ ويَنْهَى، لكِنْ قدَّمَ بمقدِّمَةٍ تَدُلُّ على أَنَّهُ كان أَعْقَلَهُمْ.

وبالجُمْلَة: فالتَّقديماتُ بَيْنَ يَدَي الخِطَابِ تَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ صاحِبِها إلى مَصَافِّ[٣] الأُدَباءِ العُقَلاءِ، بَلْ إِنَّهُ لَيَتربَّعُ على القُلُوبِ، ويُنْظَرُ لَهُ نَظْرَةَ إجلالٍ وإكبارٍ، وباللهِ التَّوفيقُ.

وَاسِطَةُ العِقْدِ:

قال أبو هِلَالٍ العَسْكَرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -:

«إذا كان الابتداءُ حَسَنًا بَدِيعًا، ومَلِيحًا رَشِيقًا ـ كان داعِيَةَ الاسْتِماعِ لما يَجِيءُ بَعْدَهُ مِنَ الكلامِ». (الصناعتين) (ص٤٣٧).

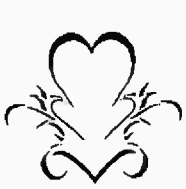

(١) رواه البُخاريُّ (٧).

(٢) المَصَافُّ: جَمْعُ المَصَفِّ، وهو مَوْضِعُ الصَّفِّ.

(٣)صَحِيح: رَوَاهُ النَّسائي (٦/ ١١٤)، وَصَحَّحَهُ الألبَاني في (صَحِيحِ النَّسائي).

جَمالُ الذَّوْقِ

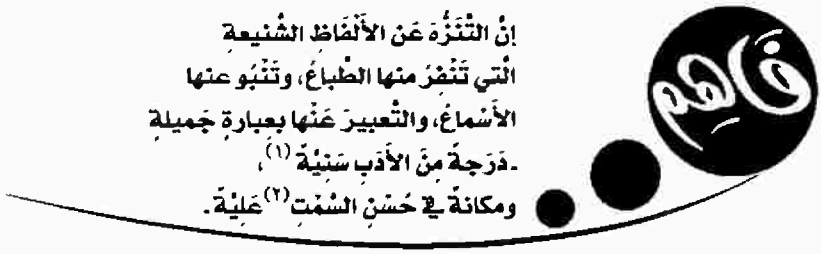

إنَّ التَّنَزُّهَ عَنِ الألفاظِ الشَّنيعةِ الَّتي تَنْفِرُ منها الطِّباعُ، وتَنْبُو عنها الأَسْماعُ، والتَّعبيرَ عَنْها بعبارةٍ جَميلةٍ دَرَجةٌ مِنَ الأَدَبِ سَنِيَّةٌ[1]، ومكانةٌ في حُسْنِ السَّمْتِ[2] عَلِيَّةٌ.

التَّلَفُّظُ بالوَحْشِيِّ الشَّنيعِ مُجافاةُ الصَّوابِ، وفاقدٌ ناطِقُهُ السَّجايا والآدابَ، والمُؤْمِنُ يَنْأَى بنَفْسِهِ عَنِ الفَحشاءِ، ويَتَجافى عَنِ البَذَاءِ.

فَعَنِ ابنِ مَسْعودٍ — رضي الله عنه — **قال**: قال رسولُ اللهِ — صلى الله عليه وسلم —: «**لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، ولا اللَّعَّانِ، ولا الفاحشِ، ولا البَذِيِّ**»[3].

قال النوويُّ — رحمه الله —: وممَّا يُنْهَى عَنْهُ الفُحْشُ، وبَذَاءةُ اللِّسانِ، والأحاديثُ الصَّحيحةُ فيه كثيرةٌ ومعروفةٌ.

وَمَعْنَاهُ: التَّعبيرُ عَنِ الأُمُورِ المُسْتقبحة بعبارةٍ صريحةٍ، وإنْ كانتْ صحيحةً، والمُتَكَلِّمُ بها صادقًا، ويَقَعُ ذلك كثيرًا في ألفاظِ الوِقَاعِ وَنَحْوِها.

ويَنْبَغي أنْ يُسْتَعْمَلَ في ذلك الكِنَاياتُ، ويُعَبَّرَ عنها بعبارةٍ جميلةٍ يُفْهَمُ بها الغَرَضُ. وبهذا جاء القُرآنُ العزيزُ، والسُّنَنُ الصَّحيحةُ المُكَرَّمةُ:

قال الله -تعالى-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧).

وقال -تعالى-: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النساء: ٢١).

(١) سَنِيَّة: رفيعة.

(٢) السَّمْت ـ بالفتح ـ: اتِّباع الحقِّ والهَدْي.

(٣) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٤٠٤)، والبُخاريُّ في «الأدب المُفرد» (٣١٢)، والتِّرمذيُّ (١٩٧٧) -واللفظ له-، وقال: «حَسَنٌ غريبٌ»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٧).

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

والآياتُ والأحاديثُ الصَّحيحةُ في ذلك كثيرةٌ.

قال العُلماءُ: «فينبغي أنْ يُسْتعْمَلَ في هذا وما أَشْبَهَهُ مِنَ العِبَارَاتِ الَّتي يُسْتَحيَا مِنْ ذِكْرِها بصريحِ اسْمِها ـ الكناياتُ المُفْهِمةُ، فَيُكْنَى عَنْ جِماعِ المَرْأةِ بالإفضاءِ، والدُّخولِ، والمُعاشرةِ، والوِقَاعِ، ونَحْوِها، ولا يُصَرَّحَ بالنَّيْكِ، والجِماعِ، ونَحْوِهما، وكذلك يُكْنَى عَنِ البَوْلِ، والتَّغَوُّطِ بقضاءِ الحاجةِ، والذَّهابِ إلى الخَلَاءِ، ولا يُصَرَّحُ بالخَرَاءةِ، والبَوْلِ، ونَحْوِهما.

وكذلك ذِكرُ العُيُوبِ: كالبَرَصِ، والبَخَرِ[١]، والصُّنَانِ[٢]، وغَيْرِها ـ يُعَبَّرُ عنها بعباراتٍ جميلةٍ يُفْهَمُ منها الغَرَضُ.

ويُلْحَقُ بما ذَكَرْناهُ مِنَ الأمثلةِ ما سِوَاهُ»[٣].

وَمِن دُرَرِ العلَّامةِ الماوَرديِّ -رحمه الله- قَوْلُهُ في بيانِ آدابِ الكلامِ:

«ومِنْ آدابِهِ: أنْ يَتَجافَى هُجْرَ القَوْلِ، ومُسْتَقْبَحَ الكلامِ، وَلْيَعْدِلْ إلى الكنايةِ عمَّا يُسْتَقْبَحُ صريحُهُ، ويُسْتَهْجَنُ فصيحُهُ؛ ليَبْلُغَ الغَرَضَ ولسانُهُ نَزِهٌ، وأَدَبُهُ مَصُونٌ»[٤].

وَمِن طَريفِ ما يُذكَرُ: أنَّ الحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ ـ على الرغمِ مِنْ شَنِيعِ أَعْمالِهِ ـ كان يتجافى عَنِ الفُحْشِ البَذيءِ، والسَّخيفِ الدَّنِيءِ.

قال الحصريُّ -رحمه الله-: «وكانَ الحَجَّاجُ ـ على قُبْحِ أَفْعالِهِ، وسوءِ أَحْوالِهِ ـ يتنزَّهُ عَنْ أنْ يَنْطِقَ بلَفْظةٍ سخيفةٍ، وقَدْ قال لِمَنِ اتَّهمهُ بمالِ ابْنِ الأَشْعَثِ: لَوْ خَبَّأْتَهُ تَحْتُ ـ حتَّى قال: تَحْتَ ذَيْلِكَ ـ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إخراجِهِ»[٥].

(١) البَخَر: نَتْنُ الفَم، وبابُهُ فَرِحَ.

(٢) الصُّنَان ـ بزِنَةِ الغُراب ـ: ذَفَرُ الإبْط.

(٣) «الأذكار» للنَّوويِّ (ص٣٣٤).

(٤) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٥).

(٥) «جَمْعُ الجواهِرِ في المُلَحِ والنَّوادرِ» للحصريِّ (ص٦٠٤).

وإنَّما أراد أنْ يَقُولَ: تَحْتَ اسْتِكَ[١].

وكذلك الأَمْثَالُ يَحْسُنُ اختيارُ أَحْسَنِها لَفْظًا[٢].

قال الماوَرْديُّ -رحمه الله- في بيانِ آداب الكلامِ: «وَمِنْ آدابه: أنْ يَجْتَنِبَ أَمْثَالَ العامَّة الغَوغاءِ[٣]، ويَتَخَصَّصَ بأمثالِ العُلَماءِ الأُدباءِ[٤]؛ فإنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ أَمْثَالًا تُشَاكِلُهُمْ، فلا تَجِدُ لساقطٍ إلّا مَثَلًا ساقطًا، وتَشْبيهًا مُسْتَقْبَحًا»[٥].

سَبائِكُ ذَهَبِيَّةٌ:

قال القاسميُّ -رحمه الله-: «إيَّاكَ وما يُسْتَقْبَحُ مِنَ الكَلَامِ؛ فإنَّهُ يُنَفِّرُ عَنْكَ الكِرامَ، ويُوثِبُ عَلَيْكَ اللِّئَامَ» (جوامع الآداب) للقاسميِّ (ص٦).

(١) الاسْتُ: حَلْقَةُ الدُّبُرِ.

(٢) لِيَعْلَمِ المُتَأَدِّبُ أَنَّ أَكْثَرَ الأَمْثَالِ الشَّعْبيَّةِ يَغْلِبُ عليها الكلامُ الفاحِشُ إلَّا ما نَدَرَ، وكذلك بَعْضُ أَمْثَالِ العَرَبِ.

(٣) الغَوْغاءُ: سَقَطُ النَّاسِ وهَمَلُهُمْ.

(٤) أَمْثَالُ الأُدَبَاءِ والعُلَمَاءِ الفُضَلاءِ مَبْثُوثَةٌ في كُتُبِ الأَمْثَالِ المُتقدِّمة، وقَدْ جَمَعْتُ بَعْضَها في كتابٍ أَسْمَيْتُهُ «المُنْتَقَى مِنْ أَمْثَالِ النُّبلاءِ»، وهُوَ مَطْبُوعٌ مُتَداوَلٌ، ولله الحَمْدُ.

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص٢٤٦).

السِّحْرُ الحَلالُ

إنْ الكلامَ الطَّيِّبَ ما عُجِنَ عَنْبَرُ ألفاظِهِ بِمِسْكِ معانيهِ، فَفاحَ نَسيمُ عَبَقِهِ، وسَطَعَ أريجُهُ، وعَقَدَ سِحْرَهُ.

عَنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ –رضي الله عنهما–: أنَّهُ قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ المَشْرِقِ فَخَطَبا، فَعَجِبَ النَّاسُ لبيانهما، فقال رَسُولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم–: «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا». أَوْ: «إنَّ بَعْضَ البَيَانِ سِحْرٌ»[1].

قال ابنُ دُرَيْد –رحمه الله–: «يُرِيدُ: أنَّ البليغَ يَبْلُغُ بِبَيَانِهِ ما يَبْلُغُهُ السَّاحِرُ في لَطَافَةِ حِيلَتِهِ»[2].

وقال ابنُ الرُّومِيّ -وأَحْسَنَ-:

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلالُ لَوَ أنَّها ... لَمْ تَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ[3]
إنْ طَالَ لَمْ يُمْلِلْ، وإنْ هِيَ أَوْجَزَتْ ... وَدَّ المُتَحَدِّثُ أَنَّهَا لَمْ تُوجِزِ
شَرَكُ[4] العُقُولِ، ونُزْهَةٌ ما مِثْلُها ... للسَّامعينَ، وعُقْلَةُ المُسْتَوْفِزِ
دُرَرٌ تَعِيشُ الأُذْنُ في نَغَمَاتِها ... بِمُطَرَّزٍ عَذْبٍ وغَيْرِ مُطَرَّزِ[5]

---

(١) رواه البخاريُّ (٥١٤٦)، (٥٧٦٧).

(٢) «المجتنى» (ص١١).

(٣) المُتَحَرِّز: المُتَوَقِّي المُتَحَصِّنُ.

(٤) الشَّرَك ـ بفتحتَيْن ـ: حبائلُ الصَّائدِ الَّتي يَرْتَبِكُ فيها الصَّيْدُ، واحدتُها شَرَكَةٌ، وجَمْعُها شُرُكٌ ـ بضمَّتَين ـ، وهي قَليلةٌ نادرةٌ.

(٥) «الأمالي» (١/ ١١٥)، و«نهاية الأَرَب» (٢/ ٧١)، و«أدب المجالسة» (ص٤٦)، وفي «ديوانه» (ص٤٠٩): «لَوَ أنَّهُ لَمْ يَجْنِ»، و«التَّمهيد» (٥/ ١٧٥).

(٦) «التمهيد» (٥/ ١٧٥).

وقال يُوسُفُ بنُ هارُونَ:

نطقت بِسِحْرٍ بَعْدَها غَيْرَ أَنَّهُ ... مِنَ السِّحْرِ ما لَمْ يُخْتَلَفْ في حَلَالِهْ
كَذاكَ ابْنُ سِيرِينَ بِنَفْثَةِ يُوسُفٍ ... تَكَلَّمَ في الرُّؤيا بِمِثْلِ مَقَالِهْ(٦)

وقال حَسّانُ في ابنِ عبّاسٍ - رضي الله عنهما -:

صَموتٌ إذا ما الصَّمْتُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... وفَتّاقُ أَبْكارِ الكَلامِ المُخَتَّمِ
وَعَى ما وعَى القُرآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ ... وَنِيطَتْ(١) لَهُ الآدَابُ باللَّحْمِ والدَّمِ(٢)

زَبَرْجَدٌ:

قال عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ - رحمه الله - لرَجُلٍ سَأَلَهُ حاجةً، فأَحْسَنَ المَسْأَلَةَ، فأَعْجَبَهُ قَوْلُهُ -: «هذا - واللهِ - السِّحْرُ الحَلَالُ».

(بهجة المجالس) (١/ ٥٧)، و(التَّمهيد) (٥/ ١٧٤).

(١) نِيطَتْ: عُلِّقَتْ، وقَدْ ناطَ الشَّيءَ بِهِ مِنْ بابِ قال.

(٢) «التمهيد» (٥/ ١٧٨).

جَرَسُ القُلوبِ

إنَّ في الفُصْحَى حَلاوةَ مَنْطِقٍ،
فاهم ورَشاقةَ لَفْظٍ، ورَنينَ أَخّاذٍ،
والنَّاسُ يُجِلُّونَ مَنِ اعْتَادَ الحديثَ بالفُصْحَى،
ويَهَابُونَه حتَّى العَامَّةُ [1]، ومَنْ لا يُحْسِنُ العَرَبِيَّةَ [2].

إنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَقْرَعَ جَرَسَ القُلُوبِ، فلا أَرَى أَجْمَلَ وأَحْلَى مِنْ جَرَسِ العربيَّةِ الفُصْحَى، فاعْتَدِ الحديثُ بها؛ فإنَّ لَهَا نَغْمَةَ أوتارٍ لا تُوجَدُ في غَيْرِها مِنْ لُغَاتِ العالَمِ.

قال ابنُ بسَّامٍ – رحمه الله –:

فَـلا تَـعْـدُ إِصْــلاحَ الـلِّـسـانِ؛ فإِنَّهُ ... يُـــخـبِرُ عـــمَّا عِـــنْـــدَهُ ويُــبـيِّنُ
ويُعْجِبُني زِيُّ [3] الـفَـتَـى وَجَـمَـالُـهُ ... وَيَسْـقُـطُ مِـنْ عَيْنَيَّ ساعةَ يَلْحَنُ

وقال شوقي:

إنَّ الَّــذي مَــلأَ الــلُّـغَـاتِ مَحَاسِنًا ... جَـعَـلَ الجَــمَالَ وَسِرَّهُ في الـضَّـادِ

(١) بَعْضُ العاجزين عَنْ تعلُّمِ العربيَّةِ يَقُولُونَ: إنَّهُ لابُدَّ مِنَ العاميَّةِ؛ لمُخاطبةِ النَّاسِ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ، والجوابُ عليه:

قال د. فتحي جمعة أستاذُ العُلُوم اللُّغويَّةِ بكُلِّيَّةِ دارِ العُلُوم جامعة القاهرةِ ـ حفظه الله ـ: «إنَّ المُخاطبةَ على قَدْرِ العُقُولِ لا تَعْني تَبَذُّلَ اللُّغَة، أَوْ هُبُوطَ الكلامِ، وانْحِرافَهُ عَنْ سُنَنِ الفُصْحَى، وإنَّما تَعْني الابتعادَ عَنْ تعقيدِ الفِكْرةِ، والتَّقَعُّرِ في اللغةِ (أَيْ: تَعَمُّدِ اختيارِ الصَّعْبِ مِنَ التركيبِ، والغَريبِ الوَحْشيِّ مِنَ الكلامِ)، أَمَّا الجُنُوحُ إلى العاميَّةِ بدَعوى إفهامِ العَوَامِّ، فإنْ لَمْ يكُنْ مُداراةً للعَجْزِ عَنِ الفُصْحَى، وَقِصَرِ البَاعِ في استعمالِها ـ فَهُوَ ادِّعاءٌ يَظْلِمُ الفُصْحَى والعَوَامَّ في وَقْتٍ مَعًا: يَظْلِمُ الفُصْحَى بأَنَّها غَيْرُ مَفْهُومةٍ، وواللهِ، إنَّها لَمفهومةٌ، ويَظْلِمُ العوامَّ بأَنَّهُمْ لا يَفْهَمُونَ، وتاللهِ، إنَّهُمْ لَيَفْهَمُونَ، وإلَّا فكَيْفَ يَخْشَعُونَ للقُرْآنِ، ويَتَأَثَّرون ببالغِ المَوْعظةِ، وجَميلِ البيانِ؟!!». اهـ

(٢) العَرَبيَّةُ الفُصْحَى سماعيَّةٌ، لها لَذَاذةٌ في الأَسْماعِ؛ لذا تَجِدُ مَنْ لا يُحْسِنُ العربيَّةَ يَطْرَبُ لسماعِ الفَصيحِ مِنَ الكَلَامِ، ويَهْتَزُّ لسماعِ مَنْ يتكلَّمُ بالفُصْحَى، وهذا مُجرَّبٌ مُشاهَدٌ.

(٣) الزِّيُّ ـ بالكَسْرِ: اللِّباس والهَيْئة.

فَمَا أَجْمَلَ أَنْ تتعلَّم العربيةَ إنْ كُنْتَ لا تُحْسِنُ منها شيئًا؛ فإنَّها تُجمِّلُكَ ما تحدَّثْتَ بها!.

النَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ[١] والمَــرْءُ تُـكْـرِمُـهُ إذا لَمْ يَـلْـحَـنِ
وإذا طَلَبْتُ مِـنَ الـعُـلُـومِ أَجَلَّها فَأَجَلُّها شَـأْنًـا مُقِيمُ الأَلْـسُـنِ[٢]

وَمِنْ وصيَّة عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ لبَعْضِ بَنِيهِ: «يا بَنِيَّ، أَصْلِحُوا أَلْسِنَتَكُمْ؛ فإنَّ الرَّجُلَ تَنُوبُهُ النَّائِبةُ[٣]، فيتجمَّلُ فيها، فَيَسْتَعيرُ مِنْ أَخيهِ دابَّتَهُ، وَمِنْ صَديقِهِ ثَوْبَهُ، ولا يَجِدُ مَنْ يُعيرُهُ لِسَانَهُ»[٤].

إنِّي -وإنْ كُـنْـتُ أَثْـوابي مُلَـفَّـقـةً- لَيْسَتْ بخَزٍّ[٥]، ولا مِنْ نَسْجِ كَتَّانِ[٦]
فـإنَّ في المَـجْـدِ هِـمَّـاتي، وفي لُغَتي فَـصَـاحَـةً، ولِـسَـاني غَـيْـرُ لَحَّـانِ[٧]

وَمِنْ طَرِيفِ ما يُذْكَرُ: أنَّ أَحَدَ الفُصَحاءِ نَظَرَ إلى رَجُلٍ عليه ثِيابٌ فاخرةٌ، يتكلَّمُ بكلامٍ فَيَلْحَنُ في كَلَامِه، فقال لَهُ: «إمَّا أَنْ تتكلَّمَ بكلامٍ يُشْبِهُ لِبَاسَكَ، أو تَلْبَسَ لباسًا يُشْبِهُ كَلَامَكَ!».

جَمِّـلِ المَـنْـطِـقَ بـالـنَّـحْـوِ فَـمَـنْ يُحْـرَمُ الإعْـرَابَ في النُّطقِ اخْتَبَلَ
فـاللِّسَانُ العَضْبُ سَيْفٌ مُصْـلَتٌ كَـمْ بِسِحْرٍ مِـنْ حَـدِيـثٍ قَـدْ قُتِلَ

لآلئ:

قال عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ -رحمه الله-: «اللَّحْنُ في الكلامِ أَقْبَحُ مِنَ الجُدَرِيِّ في الوَجْهِ». (القواعد الأساسيَّة) للهاشمي (ص٣).

(١) الأَلْكَن: الَّذي لا يُقيمُ العَرَبيَّةَ لِعُجْمَةِ لسانِه، والجُمْعُ لُكْنٌ.
(٢) «القواعد الأساسيَّة» للهاشميِّ (ص٤).
(٣) النَّائبة: المُصيبة، والجَمْعُ النَّوائِبُ.
(٤) «القواعد الأساسيَّة» (ص٣).
(٥) الخَزُّ بالفَتْح: الحرير، والجَمْعُ خُزُوزٌ.
(٦) الكَتَّانُ بالفَتْح والتَّشديد: القُطْنُ.
(٧) «المفرد العلم في رَسْمِ القَلَمِ» للهاشميِّ (ص٣٩).

مَشاعِرُ الكَلِمَةِ

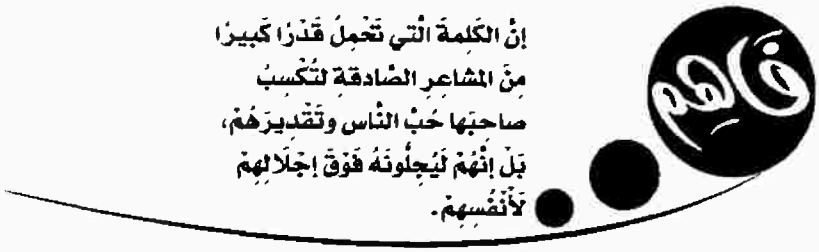

إنَّ الكَلِمَةَ الَّتي تَحْمِلُ قَدْرًا كَبيرًا مِنَ المَشاعِرِ الصَّادِقَةِ لَتُكْسِبُ صاحِبَها حُبَّ النَّاسِ وتَقْديرَهُمْ، بَلْ إنَّهُمْ لَيُجِلُّونَهُ فَوْقَ إجْلالِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ.

قَدْ تَسْمَعُ الكَلِمَةَ، وتَجِدُ لها مِنَ الارْتياحِ ما لا تَجِدُهُ لغَيْرِها مِنْ آلافِ الكلماتِ، بَلْ وتَأْسِرُكَ، وتَشْعُرُ أنَّها خَرَجَتْ مِنَ القَلْبِ، لتستقرَّ في القَلْبِ.

في كُـلِّ لَـفْـظٍ مِـنْ لِـسـانِـكَ دُرَّةٌ ... تَحْـتـارُ في أَوْصَـافِـهـا الأَلْـبـابُ
تَنْـسـابُ في قَلْبي، فيحيَا مِثْلَـما ... يُحْـيـي الـنَّـبـاتَ المـاءُ إذْ يَـنْـسَـابُ
يـا مُـخْرِسَ المُتكلِّمين ومُرْهِفَ الْـ ... أَسْـمَاعِ إنْ قـالـوا: لَدَيْهِ خِطَابُ[1]

وما مِنْ شَكٍّ أَنَّ الإنسانَ الناضجَ في عَواطِفِهِ ومشَاعِرِهِ يَعْرِفُ ما وَرَاءَ الكلماتِ المنطوقةِ مِنْ مشاعِرَ، وأَعظمُ مَنْ يَتَبَيَّنُ ذلك النِّساءُ؛ لأَنَّهُنَّ أَنْدَى عاطفةً[2].

تقولُ إحداهُنَّ -وهي عبير العقاد- :

«كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ لا يُعيرونَ أَهَمِّيَّةً لصَدَى كلماتِهِمْ، ووَقْعِها في نُفُوسِ الغَيْرِ؛ فَتَراهُمْ لا يُفَكِّرُونَ بِمَا يَقُولُونَ ولَا يَأْبَهُونَ بِمَشَاعِرِ الآخَرِينَ وَهُنَاكَ مِنَ الأَشْخاصِ مَنْ تَعدَّى هذِهِ المَرْحَلَةَ، وتَنَبَّهَ إلى أَثَرِ الكَلماتِ الإيجابيَّةِ في النَّفْسِ، فتراهُمْ يُحَدِّثون الآخَرينَ بكلماتٍ وتعبيراتٍ جَميلةِ المَظْهرِ؛ إلَّا أَنَّها ـ للأسَفِ ـ لا تَمْلِكُ ذلك الأَثَرَ الفَعَّالَ، لماذا؟.

لأَنَّها غَيْرُ صادقةٍ، ولا تُقَالُ بإخلاصٍ.... إنَّما هي مُجَرَّدُ كلماتٍ، أراد صاحِبُها إسْدَالَ

---

(١) «بلسم الحياة» مخطوط.

(٢) أَنْدَى عاطفةً أَيْ: أَحْسَنُ.

سِتَارِ اجتماعيٍّ جميلٍ على نَفْسِهِ حِيْنما قالها، ولَمْ يُفَكِّرْ في طَبيعةِ البَشَرِ الَّتي تتميَّزُ بوُجُودِ جهازِ استقبالٍ قَوِيٍّ مُفْعَمٍ بالذَّكاءِ[1] والتَحْليلِ، ذلك الجهازُ الَّذي يَسْتطيعُ أنْ يَكْشِفَ ما وَرَاءَ الكلماتِ المنطوقةِ، ويَسْتطيعُ أنْ يُمَيِّزَ الكلماتِ الَّتي تُنْطَقُ دُونَها نيَّةٌ صافيةٌ مِنْ نَفْسِ صاحبِها عَنِ الأُخْرَى الَّتي تَحْمِلُ في هَمَساتِها كُلَّ الحُبِّ والصَّفاءِ، والشَّفافيّةِ والتَّقْدير.

فالكلماتُ الَّتي تَخْرُجُ مِنَّا تَكُونُ مُحمَّلةً بطاقةٍ ناطقتها الفِعْليَّةِ: فإما طاقة الحُبِّ....، أَوِ المُجاملةِ ... العَطْفِ .... اللَّامُبَالاةِ...التملُّكِ...الكُرْهِ..إلخ.

لذا كثيرًا ما تَكْرَهُ شَخْصًا رغمَ مقدارِ الكلماتِ الإيجابيَّةِ الَّتي يَسْتَخْدِمُها مَعَكَ تعبير (يا حبيبي !) لماذا؟.

لأنَّ جِهازَ استقبالِكَ ـ إنْ كان حسَّاسًا وناضجًا ـ اسْتَطَاعَ الْتِقَاطَ طاقةِ الكلمةِ، وعَرَفَ أنَّ ذلك الشَّخْصَ يَبْعَثُ اللَّامبالاةَ، ورُبَّما كُرْهًا مَعَ كلمةِ (يا حبيبي !)»[2].

قُلْتُ: هذا واقعٌ مالَه مِنْ دافعٍ، لا يُنْكِرُهُ إلَّا مَنْ بأُذُنِهِ طَرَشٌ، وفي عَيْنِهِ رَمَدٌ، فَمَنْ لَزِمَ جانبَ الصِّدْقِ والاخلاصِ، وُجِدَ لكلامِهِ رُوحٌ مِنَ التَّأْثِيرِ والتَّنفيذِ، ولَابُدّ.

عَسْجَدٌ:

قال عامرُ بنُ قَيسٍ — رحمه الله —:

«الكلمةُ إذا خَرَجَتْ مِنَ القَلْبِ، وَقَعَتْ في القَلْبِ، وإنْ خَرَجَتْ مِنَ اللِّسانِ، لَمْ تُجاوِزِ الآذانَ» (تُحفة الخطيب) للمؤلِّف (ص١٦).

(١) مُفْعَم بالذَّكاء: مَمْلُوء به.

(٢) «مجلة البيان» عدد (٢٣٣).

صَفحَةٌ مَفتُوحَةٌ

إنَّ المَرْءَ مَتَى أَضْمَرَ حُبًّا
فاهم أَوْ بُغْضاً، فلا يَخْفَى ذلك
على أصحابِ البَصيرةِ النافذةِ؛
فالوَجْهُ صَفْحةٌ مَقْروءةٌ،
والعُيونُ مَغارِيفُ القُلوبِ.

قال اللهُ -سبحانه وتعالى- : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل: ٥٨).

وقال -تعالى- : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (الحج: ٧٢).

وقال -تعالى- : ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ (يونس: ٢٧).

وقال -تعالى-: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأحزاب: ١٩).

فهذهِ الآياتُ وغَيْرُها لَتَدُلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الوَجْهَ صَفْحَةٌ مَفْتُوحةٌ، بها يُعْرَفُ ما في القَلْبِ، وإنْ لم يتكلَّمْ صاحِبُها.

قال الشاعر:

إنْ كاتَمُونا القِلى[1] نمَّتْ[2] عُيُونُهُم ... والعَيْنُ تُظْهِرُ ما في القَلْبِ أَوْ تَصِفُ[3]

وقال أستاذنا العماد:

عَيْنَاكَ تُخْبِرُني بِما أَخْفَيْتَ مِنْ ... دَمْعِ الصَّبابةِ، أَوْ لَظَى الأَشْوَاقِ
ولَقَدْ أَمِنْتَ مِنَ اللِّسانِ لِحفْظِها ... لكِنْ نَسيتَ خِيانَةَ الأَحْدَاقِ[4]

---

(١) القِلَى: البُغْضُ، يُقالُ: قَلاهُ يَقْلِيهِ قِلىً وقَلاءً -بالفَتْحِ والمدِّ-، ويَقْلاهُ لُغَةُ طَيِّءٍ.

(٢) نَمَّتْ: رفعتِ الحديثَ وأشاعتْهُ، وبابُ نَمَّ رَدَّ، ويَنِمُّ -بالكَسْرِ- لغَةٌ فيه.

(٣) «عيون الأخبار» (١/ ١٨١).

(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

والعَيْنُ أَشَدُّ بلاغةً، وأَبْلَغُ تَعْبيرًا؛ ولهذا قَالُوا: «رُبَّ طَرْفٍ[١] أَفْصَحُ مِنْ لِسَانٍ»[٢].
وقالوا: «رُبَّ عَيْنٍ أَنَمُّ مِنْ لِسَانٍ»[٣].

وقالوا: «احْتَرِسْ مِنَ العَيْنِ، فوالله، لَهِيَ أَنَمُّ مِنَ اللِّسانِ»[٤].

وقالُوا: «شاهِدُ اللَّحْظِ[٥] أَصْدَقُ»[٦].

وقال الشّاعرُ:

وما أحب إذ أحببت مُكتتمًا ... يُبْدِي العَدَاوَةَ -أَحْيانًا- ويُخْفِيها
تَظَلُّ في قَلْبِه البَغْضَاءُ كامِنَةً ... فالقَلْبُ يَكْتُمُها، والعَيْنُ تُبْدِيها
والنَّفْس تَعْرِفُ في عَيْنَيْ مُحَدِّثِها ... مَنْ كان مِنَ سِلْمِها، أَوْ مِنْ أَعَادِيها
عَيْنَاكَ قَدْ دلَّتا عَيْنيَّ مِنْكَ عَلى ... أَشْيَاءَ، لَوْلاهُما ما كُنْتُ أَدْرِيها[٧]

وقال ابنُ الأعرابي:

العَيْنُ تُبْدي الَّذي في نَفْسِ صاحِبها ... مِنَ الشَّنَاءَةِ[٨] أَوْ وُدٍّ إذا كانا
إنَّ البَغِيضَ لَهُ عَيْنٌ يَصُدُّ[٩] بها ... لا يستطيعُ لما في الصَّدْرِ كِتْمانا
العَيْنُ تَنْطِقُ، والأَفْوَاهُ ساكتةٌ ... حَتَّى تَرَى مِنْ ضَمِيرِ القَلْبِ تِبْيَانا[١٠]

وبالجُمْلَة: فهذا البابُ بَحْرٌ لا ساحلَ لَهُ، وبَقِي أَنْ نَذْكُرَ أَنَّهُ هَلْ لَنا أَنْ نُعَامِلَ غَيْرَنا بما ظَهَرَ لنا مِنْ لَحْظِهِ، أَوْ صَفْحَةِ وَجْهِهِ؟.

---

(١) **الطَّرْف** بالفَتْح: العَيْنُ.
(٢) «عيون الأخبار» (١/ ١٨١).
(٣) «مجمع الأمثال» (١/ ٣١٤).
(٤) المرجع السابق (١/ ٢٠٤).
(٥) **اللَّحْظ:** النَّظَر بمُؤْخِرِ العَيْنِ مِنْ أيِّ جانبيه كان يمينًا أو شمالًا، وهُوَ أَشَدُّ التفاتًا مِنَ الشَّزْرِ، وبابُهُ قَطَعَ، ولَحَظانًا أيضًا بالتَّحريك.
(٦) «مجمع الأمثال» (١/ ٣١٤).
(٧) «روضة العقلاء» (ص ١٠٧).
(٨) **الشَّناءة:** البُغْض والكراهيَة.
(٩) **يَصُدُّ:** يُعْرِض، وبابُهُ دَخَلَ.
(١٠) «روضة العقلاء» (ص١٠٦).

الجواب: لا، بَلْ نأْخُذُ الحيطةَ والحَذرَ فَقطْ، فإذا ظهر لنا شيءٌ مِنْ فِعْلِه، أَوْ فَلَتات لسانِهِ ـ عاملناهُ بذلك، وإنْ ظهر لنا شيءٌ مِنْ طَرْفِهِ، أَوْ صَفْحَةِ وَجْهِهِ ـ لَزِمْنا التَّغافُلَ، فَقَدْ كان شَيْخُ الإسلام يَعْرِفُ ذلك مِنْ وُجوهِ بَعْضِ طُلَّابه، فأخبر تِلْميذَهُ ابْنَ القَيِّم بما يَراهُ، فقال لَهُ: «لماذا لَمْ تُخْبِرْنا؟».

فقال: «إنَّكُمْ لا تَصْبِرُونَ».

وقال إبراهيمُ بنُ المَهْديّ العبّاسي ـ رحمه الله ـ:

«اعْلَمْ أنَّ مَنْ أَظْهَرَ ما تُحِبُّ أَوْ ما تكْرَهُ، فإنَّما لك أنْ تَقِيسَ ما أَضْمَرَ قَلْبُهُ بالَّذي أظهر لسانُهُ، وليس لك أَنْ تَعْرِفَ ما أَسَرَّ ضَميرُهُ، فعامِلْهُ على نَحْو ما يُبْدِي لك لسانُهُ»[1].

لَيْسَ المُسيءُ إذا تَغَيَّبَ سُوءُهُ ... عنِّي بمَنْزِلَةِ المُسيءِ المُعْلِنِ
مَنْ كان يُظْهِرُ ما أُحِبُّ فإنَّهُ ... عِنْدي بمَنْزِلَةِ الأمِينِ المُحْسِنِ
واللهُ أَعْلَمُ بالقُلُوب، وإنَّما ... لَكَ ما بَدَا لَكَ مِنْهُمُ بالأَلْسُنِ
وَلَقَدْ يُقالُ خِلَافُ ذلك: إنَّما ... لَكَ ما بَدَا لك مِنْهُمَ بالأَعْيُنِ

ماس:

قال إبراهيمُ الحجنيُّ ـ رحمه الله ـ:

«دَلائِلُ الحُبِّ تُعْرَفُ في المُحِبِّ، وإنْ لَمْ يَنْطِقْ لسانُهُ».

(روضة العقلاء) (ص١٠٧).

(١) المرجع السابق (ص ١٠٧).

صَيْدُ القُلوبِ

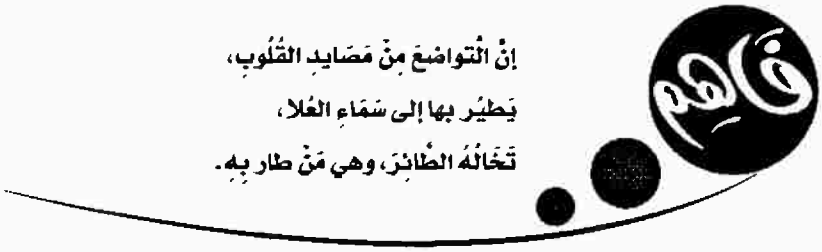

إنَّ التَّواضعَ مِنْ مَصَايدِ القُلوبِ،
يَطيرُ بها إلى سَمَاءِ العُلا،
تَخَالُهُ الطَّائِرَ، وهي مَنْ طار بِهِ.

ما تواضَعَ أَحَدٌ للهِ، إلَّا رَفَعَ اللهُ في القُلوبِ مَنْزِلَتَهُ، دَلَّ على ذلك قَوْلُهُ - ﷺ -: «ما تواضع أَحَدٌ للهِ، إلَّا رَفَعَهُ اللهُ[١]»[٢].

قال ابنُ الحاجِ - رحمه الله -: «مَنْ أَرادَ الرِّفعةَ، فَلْيتواضعْ للهِ - تعالى -؛ فإنَّ العِزَّةَ لا تَقعُ إلَّا بقَدْرِ النُّزولِ، أَلَا تَرى أنَّ الماءَ لَمَّا نَزَلَ إلى أَصْلِ الشَّجَرةِ، صَعِدَ إلى أَعْلاها، فكأنَّ سائلًا سَأَلَهُ: ما صَعِدَ بك هُنا - أَعْني في رَأْسِ الشَّجَرةِ - وأَنْتَ في أَصْلِها؟!، فكأنَّ لسانَ حالِهِ يَقُولُ: مَنْ تواضَعَ للهِ رَفَعَهُ»[٣].

قال البُحْتُرِيُّ:

دَنَــوْتَ تَــوَاضُــعًــا، وَعَــلَــوْتَ مَجْــدًا ... فَــشَــأْنَــاكَ انْــخِــفَــاضٌ وارْتِــفَــاعُ
كَــذَاكَ الشَّــمْــسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى[٤] ... وَيَــدْنُــو الــضَّــوْءُ مِنْها والــشُّــعَــاعُ

---

(١) قال النَّوويُّ - رحمه الله - في «شرحه على مسلم» (٦/ ١٤٢) في شَرْحِهِ لهذا الحديثِ:
«قولُهُ - ﷺ -: ما تواضع أحدٌ لله، إلَّا رَفَعَهُ اللهُ» فيه وَجْهان:
أَحَدُهما - يَرْفَعُهُ اللهُ في الدُّنيا، ويُثْبِتُ لَهُ - بتواضعِهِ - في القُلُوبِ مَنْزِلَةً، ويَرْفَعُهُ اللهُ عِنْدَ النَّاسِ، ويُجِلُّ مكانَهُ. والثَّاني - أنَّ المُرادَ: ثوابُهُ في الآخرةِ، ورَفْعُهُ فيها - بتواضعِهِ - في الدُّنيا.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) «المدخل» لابْنِ الحاج (٢/ ١٢٢).

(٤) تُسامَى: تُفَاخَرُ.

وقال - أيضًا - :

كَالْبَدْرِ أَفْـرَطَ في العُلُوِّ وَضَـوْءُهُ ... للعُصْبَةِ[٥] السَّـارِينَ[٦] جِـدُّ قَرِيبِ

وقال غَيْرُهُ:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاَحَ[١] لِنَاظِـرٍ ... على صَفَحَاتِ المَـاءِ، وهُـوَ رَفِيْـعُ
ولا تَـكُ كـالـدُّخَـانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... إلى طَبَقَاتِ الجَـوِّ، وَهُـوَ وَضِيْـعُ

وقال أستاذنا العماد - حفظه الله - :

خَـلِّ الـتَّـعَـاظُـمَ في المَـلا ... فـالـنَّـاسُ هُـمْ أَدْرَى بِحـالِـكْ
مَـهْـما عَـلَـوْتَ بِنـاظـرِيـك ... فَـلَـسْـتَ عِـنْـدَهُـمُ كَـذَلِـكْ
لَـنْ تَـرْتَـقِـي إلَّا إذا ... كـان الـتَّـواضُـعُ رَأْسَ مـالِـكْ[٢]

سَبَائِكُ ذَهَبِيَّة :

قال ابنُ المُقَفَّعِ: «إنِ استطعتَ أَنْ تَضَعَ نَفْسَكَ دُونَ غايتِكَ في كُلِّ مَجْلِسٍ، ومقامٍ ومقالٍ، ورأْيٍ وفِعْلٍ ـ فافْعَلْ؛ فإنَّ رَفْعَ النَّاسِ إيَّاك فَوْقَ المَنْزِلَةِ الَّتي تَحُطُّ إليها نَفْسَكَ، وتَقْرِيبَهُمْ إيَّاكَ إلى المَجْلِسِ الَّذي تَبَاعَدْتَ مِنْهُ، وتعظيمَهُمْ مِنْ أَمْرِكَ ما لَمْ تُعَظِّمْ، وتزيينَهُمْ مِنْ كلامِكَ ورَأْيِكَ وفِعْلِكَ ما لَمْ تُزَيِّنْ ـ هُوَ الجَمالُ».

(الأدب الصَّغير، والأدب الكبير) (ص١١٨-١١٩).

(١) العُصْبة بالضَّمِّ: الجماعة.
(٢) السَّارين: السَّائرين ليلًا من السُّرى، وهُوَ سَيْرُ اللَّيل.
(٣) لاَحَ: بَدَا وظهر، وبابُهُ قال.
(٤) «بلسم الحياة» مخطوط.

استراحة القُلوب

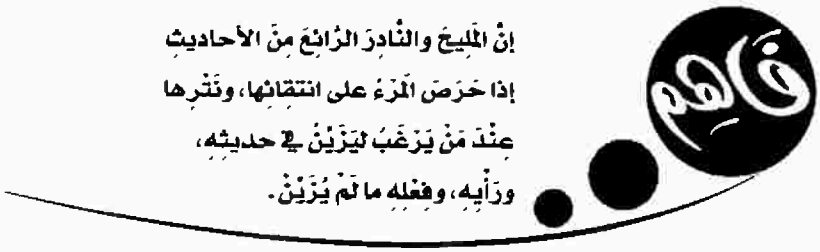

إنَّ المَليحَ والنَّادِرَ الرَّائعَ مِنَ الأحاديثِ إذا حَرَصَ المَرءُ على انتقائِها، ونَشْرِها عِنْدَ مَنْ يَرغَبُ ليَزِيْنَ في حديثِه، ورَأيِه، وفِعْلِه ما لَمْ يَزِنْ.

حَرِيٌّ بكَ أَنْ تَحْرِصَ على حِفْظِ المَلِيحِ والرَّائعِ مِنَ الأحاديثِ؛ لتَنْشُرَها في كُلِّ مَجْلَسٍ ومقامٍ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يَزَالُ شَغُوفًا بما لَمْ يَذُقْ، فإذا أَطْعَمْتَهُ نوادرَ الحَدِيثِ، ظَنَّ أَنَّ لحديثِكَ شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ ما ذاق، فيفتحُ لك قَلْبَهُ، ويَجْرِي بَيْنَكما تعارفٌ ومودَّةٌ، ما مِنْ ذلك بُدٌّ.

قال ابنُ المُقَفَّع: «اعْلَمْ أَنَّهُ سَتَمُرُّ عَلَيْكَ أَحاديثُ تُعْجِبُكَ: إمَّا مَليحةٌ، وإمَّا رائعةٌ. فإذا أَعجَبَتْكَ كُنْتَ خَليقًا أَنْ تَحْفَظَها؛ فإنَّ الحِفْظَ مُوَكَّلٌ بما مَلُحَ وَرَاعَ، وسَتَحْرِصُ على أَنْ تَعْجَبَ مِنْهَا الأَقْوَامُ. فإنَّ الحِرْصَ على ذلك التَّعَجُّبِ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ، ولَيْسَ كُلُّ مُعْجِبٍ لك مُعْجِبًا لِغَيْرِكَ»[1].

قُلتُ: لَيَحرِصِ المَرْءُ على إتحافِ السَّامعينَ بما لَذَّ وطاب مِنَ الأحاديثِ، مُراعيًا الحالَ والمَقَامَ ووُقُوعَهُ مِنْ نُفُوسِهِمْ مَوْقِعَهُ، فإنِ اشْتَهَتْ حَدِيثَهُ اسْتَهَلَّ كلامَهُ، وإنْ عافَتْ أَمْسَكَ.

وَلْيَحْرِصْ تَمَامَ الحِرْصِ على الصِّدْقِ في الأَقْوالِ، ولْيَبْتَعِدْ عَنِ الغِيْبَةِ، والنَّميمةِ، وجَرْحِ المشاعِرِ، وليَكُنْ حَدِيثُهُ جامعًا نافعًا مُفيدًا، ولْيَبْتَعِدْ ـ أيضًا ـ عَنْ سخيفِ الحديثِ وهَزْلِهِ الَّذي تَمُجُّهُ الأسماعُ، وتَنْفِرُ منه الطِّباعُ.

---

(١) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٢٣-١٢٤).

قال ابنُ المُقفَّع: «فإذا انْتَشَرَ ذلك ـ أي: المليحُ والرَّائعُ ـ المرَّةَ والمرَّتَيْنِ، فَلَمْ تَرَهُ وَقَعَ مِنَ السَّامعينَ مَوْقِعَهُ ـ فازْدَجِرْ[١] عَنِ العَوْدَةِ؛ فإنَّ العجبَ مِنْ غَيْرِ عَجِيبٍ سُخْفٌ شديدٌ.

وقَدْ رَأَيْنا مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْلَقُ الشَّيْءَ[٢]، ولا يُقْلِعُ عَنْهُ، وعَنِ الحديثِ بِهِ، ولا يَمْنَعُهُ قِلَّةُ قَبُولِ أصحابِهِ لَهُ مِنْ أَنْ يَعُودَ إليه، ثُمَّ يَعُودُ.

ثُمَّ انْظُرِ الأَخْبَارِ الَّرائعةَ، فتحفَّظْ مِنْها؛ فإنَّ الإنسانَ مِنْ شَأْنِهِ الحِرْصُ على الأخبارِ، ولا سَّيما ما راع منها، فأكثرُ النَّاسِ مَنْ يُحَدِّثُ بما سَمِعَ، ولا يُبالي مِمَّنْ سَمِعَ، وذلك مَفْسَدَةٌ للصِّدْقِ، ومَزْرَاةٌ بالمُروءةِ، فإنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تُخْبِرَ بشَيْءٍ، إلَّا وأَنْتَ بِهِ مُصَدِّقٌ، ولا يَكُونَ تصديقُكَ إلَّا ببُرْهانٍ ـ فافْعَلْ.

ولا تَقُلْ كما يَقولُ السُّفهاءُ: أُخْبِرُ بِمَا سَمِعْتُ؛ فإنَّ الكَذِبَ أكثرُ ما أَنْتَ سامعٌ، وإنَّ السُّفَهاءَ أَكْثَرُ مَنْ هُوَ قائلٌ.

وإنَّكَ إنْ صِرْتَ للأحاديثِ واعيًا وحاملًا، كان ما تَعِي وتَحمِلُ عَنِ العامَّةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَخْتَرِعُ المُخْتَرِعُ بأضْعَافٍ»[٣].

نادرة:

المَليحُ والرَّائعُ مِنَ الأحاديثِ فَخٌّ لاصطيادِ القُلُوبِ.

(١) ازْدَجِرْ: ارْتَدِعْ وامْتَنِعْ.
(٢) يَعْلَقُ الشَّيْءَ: يَلْزَمُهُ ويَلْهَجُ به، وبابُهُ فَرِحَ.
(٣) «الأدب الصغير، والأدب الكبير» (ص١٢٢).

السِّحرُ الظّاهِرُ

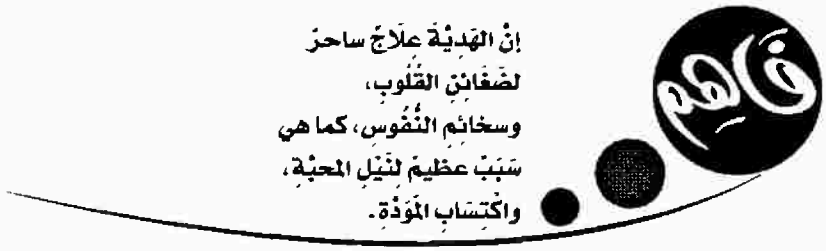

إنَّ الهَدِيَّةَ علاجٌ ساحرٌ لضَغائِنِ القُلُوبِ، وسخائِمِ النُّفُوسِ، كما هي سَبَبٌ عظيمٌ لنَيْلِ المحبَّةِ، واكْتِسابِ المَوَدَّةِ.

حَثَّ النَّبيُّ - ﷺ - على الهَدِيَّةِ، وبَيَّنَ لنا أنَّها سَبَبُ المحبَّةِ بقَوْلِه: «**تَهَادَوْا تحابُّوا**»[1].

بَلْ إنَّها لَتَسُلُّ السَّخيمةَ[2]، وتَذْهَبُ بالضَّغِينةِ، وتُورِثُ المودَّةَ.

كما قِيلَ:

إنَّ الهَـــدِيَّـــةَ حُـــلْـــوَةٌ ... كـالسِّـحْـرِ تَخْـتَـلِـبُ القُـلُـوبـا
تُـــدْني الـبَـعِـيـدَ مِـنَ الهَـوَى ... حَـتَّـى تُـصَـيِّـرَهُ قَـرِيـبـا
وتُـعِـيـدُ مُـضْـطَـغِـنَ الـعَـدا ... وَةَ -بَـعْـدَ بـغْـضَـتِـه- حَـبِـيـبا
تَنْفي السَّخيمةَ مِنْ ذَوي الشَّـ ... ـحْـنَـا، وتَمْـتَـحِـقُ الـذُّنُـوبـا[3]

وقال الأبرش:

هَـدايـا الـنَّـاسِ بَـعْـضِـهِـمُ لبَعْضٍ ... تُـوَلِّـدُ في قُـلُـوبِـهِـمُ الـوِصَـالا
وتَــزْرَعُ في الـقُـلُـوبِ هَـوَىً ووُدًّا ... وتَـكْـسُـوكَ المَـهَـابَـةَ والجَـلالا
مصايِدُ للقُلُوبِ بغَيْرِ لَغْبٍ[4] ... وتَمْـنَـحُـكَ المحـبَّـةَ والجَـمَالا[5]

---

(١) (حسن) أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه -، وحسَّنه الألبانيُّ لشواهدِه في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤)، و«الإرواء» (١٦٠١).

(٢) السَّخيمةُ: الحِقْدَ، والجَمْعُ سَخائِمُ.

(٣) «روضة العقلاء» (ص٣٩٦).

(٤) اللَّغَبُ: كالتَّعَبِ زِنَةً ومعنىً.

(٥) «روضة العقلاء» (ص٣٩٧).

وقال أستاذنا العماد - حفظه الله -:

أَلْـــجَــمْــتَــنــي بــالهــدايــا وفي اخـــتــيــارِكَ مـــاهِــرْ
قَـــهَــرْتَ مــا كـــان عِــنْــدي مِـــنَ الــضَّــغــائــنِ قــاهِــرْ
إنَّ الهَـــدِيَّـــةَ سِـــحْـــرٌ لــكــنَّــهُ جِـــدُّ ظــاهِـــرْ[1]

سحر:

قال عَبْدُ المَلِكِ بنُ رِفَاعَةَ الفهميُّ - رحمه الله -: «الهَدِيَّةُ هُوَ السِّحْرُ الظَّاهِرُ».
«رَوْضَةُ العُقَلاء» (ص٣٩٦).

---

(١) «بلسم الحياة» مخطوط.